قراءة الوحي
بين المقاربات التراثية والمشاريع المعاصرة
لحظة للتأمل والمراجعة

1. تمهيد في مسار قراءة الوحي

القراءة علة النص وشرط تحققه، بها يتجسد كيانا قائما، وانطلاقا منها تتكشف دلالاته وتتجلى أبعاده وآثاره. وإذا كان هذا الأمر بدهيا إلى الحد الذي يبدو أنه لا حاجة للتذكير به، وعاما يشمل كل النصوص، فهو بالنص الإلهي أولى وأحق لاسيما وأن أول ما نزل منه كان الدعوة إلى القراءة، وأن أول أمر تلقاه الإنسان منه كان أمر القراءة.

استجاب المسلمون في مراحلهم المختلفة لنداء القراءة، مستقبحين تنكبها أو الانصراف عنها داعين بإلحاح وانسجاما مع خطاب الوحي ذاته إلى التأمل والتفكر، فطال الوقوف واتسع النظر وتعددت قراءات القوم وتنوعت مناهجهم وتمايزت بتنوع تكويناتهم، واختلاف رؤاهم، وتمايز مقاصدهم. وكان نتيجة كل ذلك غنى لا نظير له تميز به التراث الإسلامي لاسيما التراث الذي اتصل بالوحي الإلهي اتصالا مباشرا. غنى لا يمكن رده فقط إلى حجم متون هذا التراث وعدد مؤلفاته، ولا إلى مساحته الزمنية الممتدة، ولا حتى إلى تنوع أفكاره وقدرتها على التفاعل والتلاقح فحسب، بقدر ما يؤول في جوهره إلى نوعية القضايا التي عالجها، وطبيعة الإشكالات التي تعاطاها، وتَقَدُّمِ الحلول والمقترحات التي أنجزها.

وكان مما عرف من هذه الأمة أنها كلما ادلهمت الدنيا في وجهها، وأحست بمعاول الترهل والضعف والتخلف تضرب كيانها أدركت حاجتها الماسة إلى نور الوحي وطاقته فأسرعت إليه معيدة النظر ومجددة التلقي باحثة فيه عن أسباب القوة وشروط الانبعاث لتقوم من كبوتها وتحقق الاستئناف الحضاري المطلوب منها من أجل خيرها ومستقبل الإنسان بعامة.

إن كان هذا هو رد الفعل الطبيعي المنسجم مع طبيعتها باعتبارها أمة مسلمة، فإنه لم يكن التجلي الوحيد الذي صدر عن المنتسبين إليها إذ كانت العودة إلى القرآن في بعض تجلياتها من بعض هؤلاء تنطلق من منطلقات مغايرة تماما بل معاكسة حيث لم يكن الهدف منها ترسيخ الاعتقاد بنص

الوحي والإنصات لما يقول استمدادا واستنباطا بقدر ما كانت عودة انتقاد وتشكيك ونقض بسبب ما توهمه هؤلاء من مسؤوليته عما أصاب الأمة وبسبب استننساخهم لمسلك الغرب في تعاطيه مع نصوصه الدينية التي عرضها لشتى أنواع النقد والنقض.

وإذا كانت هاته الممارسة النقدية التي قام بها الغربيون لكتبهم الدينية مع بداية القرن العشرين فإنها طيلة هذا القرن وصلت إلى غاياتها القصوى مستفيدة من كل مكتسبات هذا القرن. ولا يخفى ما شهده هذا القرن، من تنوع في المناهج والحقول النظرية، فمن الفليلوجيا إلى اللسانيات، ومن الأتنولوجيا إلى الأنتروبولوجيا، ومن علم الاجتماع إلى علم النفس، ومن الهيرمينوطيقا إلى الهيرمينوطيقا الجديدة، ومن السميائيات إلى السميائيات التداولية ... وقد نجم عن هذا التنوع غنى لا نظير له من حيث الاستثمار المفاهيمي والمعجمي الذي وصل في بعض الأحيان إلى حد التبذير، والفوضى.

انتقلت إذن هذه الممارسة لقراءة النصوص الدينية من مجالها الغربي إلى المجال العربي بكل هذا التنوع؛ وبكل هذه الفوضى أيضا ليمارس ناقلوها على القرآن الكريم ألوانا وأنماطا من المناهج والمفاهيم، والمسلمات، بل وليفرضوا عليه في كثير من الأحيان النتائج نفسها والخلاصات ذاتها التي توصل إليها مقلّدوهم متنكرين بإصرار غريب لاختلاف النصوص وتمايز السياقات وكأننا مع نص واحد لا يتميز فيه التوراة عن الإنجيل، بل لا يتميز فيه التوراة والإنجيل عن القرآن الكريم (بل إن بعضهم ليلح على ضرورة التسوية بينها جميعا).

ثم لم يكن الاستشراق بخلفياته المعروفة؛ حول القرآن بعيدا عن هذه الممارسات القرائية بل لقد شكل في كثير من الأحيان مخزونا مهما لها حتى وإن ادعت في بعض تحليلاتها تجاوز منهجه وأطروحاته. غير أنه من باب الإنصاف التنويه إلى أن تعاطي بعض المستشرقين مع الوحي، تميز بمستوى غير قليل من النزاهة العلمية والاستقامة الفكرية تقترح هذه الورقة أن يكثف الاهتمام بهم بنفس القدر الذي يهتم فيه بغيرهم.

2. في الحاجة إلى مقاربة قرءات الوحي

ينبغي التنبيه أن أيا من هذه القراءات التي استهدفت القطع مع النموذج القرائي الذي تحقق للأمة في تاريخها لم يتأت لها أن تتعاطى مع الخطاب الإلهي في كليته، لكنها مع ذلك قاربت مجموعة من القضايا المهمة والخطيرة المتعلقة بهذا الخطاب، وكان لقراءتها هاته آثار ليست بالهينة لعل أدناها وأقربها التشويش على قنوات تلقي الوحي بالنسبة للأجيال القادمة وأقصاها وأبعدها إزاحته عن موقع الهيمنة من خلال التسوية بين وبين غيره من الخطابات البشرية في أفق التشكيك في قدسيته وفك ارتباطه بالمتكلم به الله سبحانه وتعالى، ومن ثم تضرب الأمة في صميم ما تجتمع عليه ويشكل صمام

أمان بقائها واستمرارها ومنطلق استئنافها الحضاري. آثار وإن هي بقت لحد الآن محصورة في فئات قليلة من النخب العربية فهي مرشحة للاتساع والانتشار في ظل غياب القرءات النقدية القادرة على كشف وهم المسلمات المنقولة القائمة على التوحيد بين السياقات المختلفة، وفضح زيف المطابقة بين النصوص المتمايزة، وتعرية العيوب المنهجية المتخفية تحت سرابيل ادعاءات الجدة والعلمية والعصرنة.

لتمحيص الرؤى، وغربلة المواقف التي ارتبطت بقراءة الوحي ماضيا وحاضرا بيانا لمكامن القوة ورصدا لجهات الخلل في هاته وتلك تحتاج الأمة اليوم إذن، وأكثر من أي وقت مضى، دفاعا عن وحدة الأمة العقدية وتجنيبا لنسيجها الفكري التشردم القاتل، لوقفات بحثية علمية هادئة ورصينة تقارب كل هذه الممارسات لاسيما وأن جزءا مهما من "مشاريع" القراءة المعاصرة اكتملت دورته بموت أصحابها (محمد عابد الجابري، نصر حامد أبو زيد، محمد أركون). كل ذلك في أفق إنجاز القراءة المعاصرة البديلة الحاملة لمشروع الأمة الاستخلافي لخلاص الإنسان في دنياه وآخرته بعيدا عن ترداد أعطاب الماضي وترفعا عن التتلمذ الاستنساخي للغرب.

3- في نمذجة قراءة الوحي

لا شك أن أي مقاربة للقراءات التي استهدفت نص الوحي في شمولها ستجد نفسها أمام إشكال نمذجتها نمذجة جامعة مانعة تحقق الانسجام والتوافق ليس بسبب كثرة هذه القراءات، وتعدد مجالاتها، وتنوع مناهجها وتداخلها، وتباين خلفياتها، وتمايز سياقاتها فقط؛ ولكن لأن مفردات النمذجة ذاتها التي من المفروض أن تندرج تحتها هذه القراءات قد يعتبرها المخالف أحكام قيمة مسبقة تقتضي الموضوعية تجنبها من أجل عدم المصادرة على المطلوب، فمفردات مثل حداثية/غير حداثية، تقليدية/تجديدية، سلفية/غير سلفية... هي أحكام قيمية يستعملها المفكرون بعد مقارباتهم لما يقرأون ولذلك فهي مثار جدل واعتراض في غالب الأحيان. بسبب هذا المعطى تقترح الورقة نمذجة تسعى قدر الإمكان إلى تحقيق الشمولية المطلوبة من دون السقوط في شراك الأحكام المسبقة، ولذلك لم تتبن الورقة أيا من النمذجات الموجودة في الساحة الفكرية والتي تعود لمفكرين لهم مشاريع قراءة أو هم من ناقدي هذه المشاريع والتي تقوم على التمييز مثلا بين القراءة السلفية (دينية، ليبرالية، يسارية) والقراءة التاريخية الأبستمولوجية [الجابري: نحن والتراث8- 26]، أو بين قراءة حداثية مقلدة وقراءة حداثية مبدعة ... [طه عبد الرحمن روح الحداثة، 175-206]...

بعيدا عن ذلك كله إذن، وحرصا على تحقيق الشمول المطلوب وتجنب أحكام القيمة المسبقة تقترح الورقة نمذجة هذه الممارسات وفق محورين مخمسين (قابلين للانفتاح) وثالث مفرد؛ أما المحور الأول فندعوه بالقراءات التراثية، من دون أن يكون لصفة التراثية أي إيحاء قدحي ولا إيجابي ومن دوم

أن ينحصر في القراءات التأسيسية القديمة فقط بل يمكنه أن يشمل أيضا القراءات الحديثة أو المعاصرة التي رغم سعيها للتجديد فإنها لم تحدث قطيعة كاملة مع الموروث مسلمات وغايات (تفاسير الإصلاحيين، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، أو التفاسير المعاصرة). ويضم خمسة أنواع من أنواع القراءة اخترنا أن ننسبها إلى مجالاتها العلمية:

أ – القراءات التراثية:

1. قراءة التفسير
2. قراءة الأصول
3. قراءة التصوف
4. قراءة الكلام و الفلسفة
5. قراءة علوم القرآن

أما المحور الثاني فنسميه بالقراءات غير التراثية، و يضم هو الآخر خمسة أنواع من أنواع القراءة نسبناها إلى المناهج المهيمنة. لأن الصفاء المنهجي لا وجود له إلا على مستوى التوصيف المنهجي القائم على التغليب، وإلا فإن الممارسة الفعلية تكشف تداخل المناهج وتكاثر المفاهيم ذات الأصول النظرية المختلفة في القراءة الواحدة.

ب– القراءات غير التراثية:

1. القراءة الهيرمنوطيقية
2. القراءة الانتروبولوجية والأسطورية
3. القراءة اللسانية و السميائية
4. القراءة الماركسية و القراءة الليبرالية
5. القراءة التفكيكية

أما المحور الثالث المفرد فخصصناه لـــ:

ج– القراءات الاستشراقية بتوجهاتها المختلفة (وتفترض الورقة أنه على الرغم من الكتابات الكثيرة التي تناولت الاستشراق فلا تزال القراءات التي جعلت قراءة للوحي موضوعا لها قليلة لا تفي بالغرض).

4. في منهج المقاربة

تقترح الورقة أن تتم معالجة هذه الممارسات القرائية وفق مقاربتين اثنتين: **المقاربة الاستكشافية والمقاربة المقارِنة**. أما عن **الأولى** فتتغيا الورقة أن يتم تحديد السياقات والخلفيات؛ المناهج والتصورات؛ القبليات والمسلمات؛ المساطر والإجراءات؛ المفاهيم والمفردات؛ الثيمات والمحتويات الغالبة ....

وأما عن الثانية فتسعى الورقة إلى مواجهة الخطابات القرائية فيما بينها داخل كل محور من أجل الوقوف على المشترك والمتفرد، ومقابلة المحاور فيما بينها بغية الوصول إلى المشتركات العامة، والفوارق المميزة. وتقترح الورقة أن لا يُكتفي في هذه المقاربة بالتركيز على مقارنة هذه الخطابات من حيث نتائجها وخلاصاتها وثيماتها أو الخلفيات الموجهة لها كما هو الغالب على كثير من الدراسات فقط، بل الاهتمام أيضا وبالأساس **بالآليات والاستراتيجيات** التي اعتمدتها هذه القراءات للوصول إلى ما وصلت إليه.

تفترض هذه الورقة أن هذين النوعين من المقاربة بالإضافة إلى أنهما سيؤديان إلى إدراك عميق لطبيعة القراءة في كل هذه الممارسات التي تعاورت النص، فإنهما سيكشفان على أن التمييز السطحي بين هذه الممارسات والقائم على معيار الزمن (قراءة تقليدية/ كلاسيكية/ قديمة في مقابل أخرى معاصرة / جديدة/ حديثة) في غالب الأحيان ليس إلا وهما ينضاف إلى أوهام كثيرة تتصل بهذه الممارسات القرائية التي استهدفت نص الوحي وقد حان وقت تعريتها بخطاب علمي متزن ممنهج وصارم. فما الذي يفرق في العمق مثلا القراءة التفكيكية الحداثية عن القراءة الباطنية (الهرمسية) القديمة ؟ (لا شك أننا سنكتشف بين هذين النوعين من المقاربة تماثلات عميقة أخرى).

5. في أجرأة تنزيل مشروع الورقة

المرحلة الأولى:

أ– تقترح الورقة أن تتم في المرحلة الأولى مقاربة المحور الأول (القراءات التراثية) من خلال مداخلات فردية كل واحدة تتعلق بمكون من مكونات المحور (مكون قراءة التفسير مثلا) أو تنويع من تنويعاته (قراءة التفسير بالأثر) إما انطلاقا من خلال نموذج معين (مفسِّر بعينه) أو من خلال رؤية إجمالية مركَّبة. ويُحرص في كل ذلك تجنب التأريخ والمقدمات والمداخل التي تبعد عن الهدف (معرفة مسلمات هذا النوع من القراءة، والاستراتيجيات التي بناها والإواليات التي اشتغل وفقها). بطبيعة الحال يمكن أن تكون أكثر من مداخلة في المكون الواحد. وترجو الورقة أن تتسع المداخلات لتشمل المحاولات الحديثة والمعاصرة في كل محور إن وجدت (تفاسير المعاصرين مثلا).

ب– تقترح الورقة أن تتوج كل مرحلة بندوة حول المحور تُستقى محاورها من المداخلات السابقة والمناقشات التي أثارتها. ويكون الأفق المقارني مما يرجي أن تنشغل به الندوة حتى يتم الوصول إلى الثوابت والمشتركات بين مكونات المحور جميعها أو بين مجموعة من مجموعات المحور فقط والوقوف على التمايزات والاختلافات أيضا.

المرحلة الثانية والثالثة:

الأمر ذاته يتم في المرحلة الثانية والثالثة بالنسبة للمحور الثاني (القراءات غير التراثية) والثالث (القراءات الاستشراقية)على التوالي.

المرحلة الرابعة:

ذات أهمية قصوى لأننا سنكون فيها أمام تراكم حقيقي لعدد كبير من المداخلات وثلاث ندوات. هذا التراكم يحتاج إلى قراءة تقف على المشتركات الثابتة التي ميزت قراءات الوحي جميعها أو بعضها، والتمايزات التي ميزت كل قراءة على حدة أو مجموعات معينة من القراءة. قراءة هذا التراكم وفق هذه الرؤية والذي تقترح الورقة أن يتم على صيغة حلقات نقاش انطلاقا من تقارير تركيبية يقوم بها أعضاء المركز لا شك أنه سيفضي إلى خلاصات مهمة ستقرر في طبيعة المرحلة الموالية خدمة لكتاب الله.

د. يحي رمضان